نظرية الحضارة بين محمد إقبال و مالك بن نبي

بوبكر جيلالي،طالب باحث لتحضير شهادة دكتوراه في الفلسفة.
قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران.
boubakerdjilali@yahoo.fr

نظرية الحضارة بين محمد إقبال ومالك بن نبي

ملخص

كل من محمد إقبال ومالك بن نبي من دعـــاة الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي،لهما مرجعية دينية وفكرية وتاريخية واحدة،شهدا نفس الظروف والأحداث والتغيّرات الفكرية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العالم المتخلف،في مقابل العالم المزدهر علميا وتكنولوجيا.الحضارة عندهما إنتاج إنساني، ذات أصل روحي ديني، تطورها بتطور العوامل الروحية والمادية وتكاملها.لا يمكن التمييز بين نظرية كل منهما عن الأخرى حول الإنسان والحياة والتاريخ والحضارة. إن محاولة إقبال انصبت على نقـــد وإعادة بناء الفكر الديني في الإسلام انطلاقا من تغيير الذات،أما محاولة مالك انصبت على إعادة بناء مشكلات الحضارة وتصور الحلـــول من منطلـــق الأصالـــة والمعـــاصرة. فإستراتيجية النقد وإعادة البناء عند إقبال ونظرية الحضارة عند مالك تمثلان رؤية فلسفة واحدة للإنسان والحياة والتاريخ والحضارة.والمتأمل فيهما يكشف أن رؤية إقبال هي أرضية فلسفية ميتافيزيقية لنظرية مالك، أما نظرية مالك فهي المحاولة الفكرية والعلمية الواقعية لفكرة إقبال.

Résumé:

La théorie de la civilisation entre Ikbal et Malek Bennabi

Ikbal et Malek Bennabi ont tous les deux prêché la reforme et la rénovation dans le monde musulman. Tous les deux se sont inspirés de la même référence religieuse intellectuelle et historique. En effet ce sont des hommes qui ont connu les grands bouleversements qui ont transformée le monde sous-développé par opposition au monde développé sur le plan scientifique et technologique.

Pour eux la civilisation est un produit humain d'origine spirituelle et religieuse, son progrès est conditionné par un ensemble de facteurs spirituels et matériels. On ne peut cependant faire de distinction entre leurs théories sur l'homme, la vie, l'histoire et la civilisation. L'effort d'Ikbal est une critique pour la reconstruction de la pensée religieuse en islam à partir de la transformation du moi. Quant à l'effort de Bennabi, il s'est focalisé sur la reconstruction des problèmes de civilisation et conception de solutions à partir de l'originalité et son rapport avec la modernité.

La stratégie de la critique et de la reconstruction chez Ikbal tous comme la théorie de la civilisation représente la même vision philosophique de l'homme, de l'histoire et de la civilisation. Celui qui les considère de prés constate en effet que la vision d'Ikbal est la base philosophico métaphysique de la théorie de Bennabi. Quant à la théorie de Bennabi elle est un effort intellectuel et une pratique réelle de l'idée d'Ikbal.

1- الالتقاء: أصل الحضارة فكرة دينية.

ليس غريبا أن يتفق المفكرون والمصلحون والعلماء في نظراتهم إلى الحياة، وفي تحديدهم لسبيل الإصلاح ومناهج التغيير والتجديد. لأن عالم الفكر والإصلاح والعلم ليس حكرا على أحد، وفيه تبحث وتناقش شروط ولوازم وسبل وأهداف الإصلاح والتجديد، كما يتميز بطابعه الرامي باستمرار إلى بلوغ الأفضل و الأقوى في جميع مجالات الحياة، وبهذا يصير العالم من نصيب الإنسانية جمعاء، لا يختص فيه دين أو لون أو عرق أو أرض. وعالم الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي الحديث يعكس الطابع الشمولي والخصائص التي يحملها أي فعل إصلاحي، باعتبار الفعل الإصلاحي واحدا في منطلقاته وأهدافه، ومتنوعا بحسب الظروف التاريخية التي يظهر فيها الفكر الإصلاحي، أو يجري فيها الإصلاح والتجديد. و يبقى كل ما هو مطلوب من الإصلاح و التجديد ضروري في كل وقت و في أي مكان، لأن الإنسان بطبعه يملّ التكرار و ينفر من الرتابة، فيحتاج دوما إلى الجديد. وما دام الفساد يتسرب إلى حياة الإنسان فهو مطالب بتقويم وضعه وإصلاحه باستمرار.

وإذا كان الاتفاق طبيعيا بين دعاة الإصلاح والتجديد في العالم، وعبر التاريخ، لما يجمعهم، ويجمع شعوبهم، ويجمع أبناء البشرية ككل، فنجد ذلك بين دعاة الإصلاح والتجديد في اليونان القديم، وفي صدر الإسلام، وفي بداية النهضة الأوروبية الحديثة، وفي المجتمع الإسلامي الحديث. والإصلاح والتجديد من أهم شروط ومظاهر الحضارة التي هي أخذ وعطاء، فكيف لا يحصل الاتفاق والتماثل في الفكر الإصلاحي بين دعاة الإصلاح من عصر واحد ومجتمع واحد ودين واحد، فالتماثل قائم وبقوة بين كافة المصلحين و دعاة التجديد في العالم الإسلامي الحديث، كما نجد الاختلاف حال هو الآخر في عالم الإصلاح والتجديد لدى المفكرين في المجتمع الإسلامي الحديث، وعندما نقرأ المحاولات الإصلاحية والتجديدية عند محمد عبد الوهاب أو جمال الدين الأفغاني أو محمد عبده أو محمد إقبال أو عبد الحميد ابن باديس أو مالك بن نبي وغيرهم نجد النقاط التي تجمعها أكثر من النقاط التي تفرقها، فهي تلتقي في نقاط كثيرة، حتى أن القارئ يعجز أحيانا عن التمييز بين فكرة الأفغاني و فكرة تلميذه محمد عبده ولا يستطيع أن يميز بين رأي ابن باديس وغيره، حتى هؤلاء الذين بالغوا في التجديد، ونادوا بالتمرد على القديم يلتقون في أكثر من نقطة مع غيرهم من أهل الاعتدال، أو حتى من أهل التشديد على القديم.

وإذا كان محمد إقبال ومالك بن نبي من دعاة الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ولهما مرجعية دينية وفكرية وتاريخية واحدة فما يجمع بين محاولتهما أكثر مما يفصل ويفرق بينهما، عاشا في

عصر واحد، وعاصر كل منهما الآخر، فبين ميلاد محمد إقبال وميلاد مالك بن نبي اثنين وثلاثين سنة، وبين وفاة محمد إقبال ووفاة مالك بن نبي خمس وثلاثين سنة، فشاهد كل منهما نفس الظروف والأحداث والتغيرات الفكرية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العالم المتخلف، والعالم الإسلامي جزء منه بصفة خاصة وفي العالم ككل بصفة عامة كما عاشا معا مظاهر ومخلفات الحضارة الأوروبية الحديثة والفكر الغربي،وقاسا محنة الاستعمار الأوربي للأقطار العربية والإسلامية ولشعوبها. فكان كل منهما شاهدا على العصر الحديث وعلى الحياة في العالم الإسلامي في هذا العصر.

وبما أن كل واحد منهما نشأ في أسرة دينية إسلامية محافظة، لم تستطع الظروف المحيطة بهما وما فيها من تيارات فكرية ومذاهب دينية واتجاهات فلسفية، ودعوات علمية، ومنتجات حضارية برّاقة ومغرية أن تنال من انتمائهما الديني وعقيدتهما، وحبهما للإسلام وللوطن الإسلامي، إذ أنّ الواحد منهما يزداد تمسكا بدينيه وبعقيدته وبرسالته كلما ازداد اطلاعا على الفكر الغربي أو غيره، وكلما ازداد الاستعمار شراسة في سلب ونهب واغتصاب خيرات الشعوب المستعمرة، وكلما ازداد شراسة في محاولات طمس مقوّمات الأمة الإسلامية بسياسة التبشير المسيحي، ونشر الفكر المادي الإلحادي، وفرض التبعية الحضارية اقتصاديا و سياسيا واجتماعيا على تلك الشعوب المظلومة. نجد أن الواحد منهما يزداد وعيا وفهما للدين وإدراكا للحقيقة، وإدراكا لواقع العالم الإسلامي وهمومه ومشاكله في الدين والاجتماع والاقتصاد والسياسة والحضارة بشكل عام، فزاده ذلك ارتباطا، وتثبتا برسالته وحرصا على تبليغها بعيدا عن التردد والتراجع والخوف، وفي ظروف تتربص به الدوائر من كل جهة وجانب.

لقد كشف كل منهما الضعف الديني الذي آل إليه العالم الإسلامي، ولم يبق من الإسلام سوى الاسم، ومن القرآن سوى الرسم، ومن الإيمان سوى اللفظ، وسعى الاستعمار إلى تزييف تعاليم الإسلام ومبادئه، مستخدما طرقا عديدة وأساليب مختلفة، واستخدم في ذلك أبناء العالم الإسلامي أنفسهم، مستغلا فيهم الجهل، والأمية، والتخلف، فكثر الدّجل، وانتشرت الشعوذة والأباطيل والأساطير والأوثان المختلفة، والفهوم الخاطئة لأمور الدين والدنيا، ولم يعد المسلمون يعرفون حقيقة دينهم وحقيقة دنياهم، فهم بقوا على المدارس الفقهية الموروثة بعيدا عن محاولات الاجتهاد الجادة والسليمة، وعلى تراث فكري وأدبي تركه الأولون، بعيدا عن محاولات التجديد والإبداع في مجال الفكر والفلسفة والأدب وغيرها، فصاروا في وضع فكري وديني ضعيف يسمح للغير بغزوهم، ويجعل منهم لقمة سائغة في يد أعدائهم، ويقوي فيهم التخلف والتبعية لغيرهم.

وحال المسلمين في حياتهم النفسية والاجتماعية نجده كحالهم في الحياة الدينية حسب إقبال ومالك. فلم يعرف المسلمون قوة الإرادة والعزيمة، ولا الثقة بالنفس، ولا الشعور بالمسؤولية تجاه الذات والوطن والدين، بل عاشوا خيبة الأمل، والشعور باليأس والقنوط، وكراهية الواقع، لما كانوا يلقوه فيه من بؤس وشقاء وتعاسة وحرمان، بسبب الجهل والفقر والأمراض، وسيطرة العادات والتقاليد الفاسدة. ولم يكن للشعوب الإسلامية شيء في الاقتصاد والسياسة وهي تحت الاحتلال، فثرواتها وخيراتها الطبيعية، وطاقاتها البشرية كانت تستغل من قبل الاستعمار، كما كانت خاضعة له سياسيا وعسكريا، وكان الاستعمار يعمل جاهدا على فرض سلطانـــه وهيمنته على هذه الشعوب، لضمان استمراره واستغلالها ونهب خيراتها وثرواتها من خلال ضمان أسباب القوة لديه، وأسباب ضعفها وتخلفها. وفعلا ازدادت تخلفا وانحطاطا في كافة ميادين الحياة، وصارت في تبعية حضارية تامة لغيرها. ويصف إقبال وضع المسلم الذي تحول من « المسلم القوي الذي أنشأته الصحراء، وأحكمته رياحها الهوجاء، أضعفته رياح «العجم »، فصار فيها كالناي نحولا ونواحا!!![...] والذي كان يمضي على الدهر حكمه، ويقف الملوك على بابه، رضي من السعي بالقنوع، ولدّ له الاستجداء والخشوع!!».[1] ويصف مالك بن نبي العالم الإسلامي وما آل إليه بأنّه« من المحزن حقا أن العالم الإسلامي ــ إبان هذه الحقبة ــ قد استسلم لرقاد طويل، لم يفطن لساعات التاريخ الفاصلة، ولم يحاول انتهاز فرصتها السانحة، ليتخلص من الاستعمار» [2].

لقد صنعت إقبال الفيلسوف، ومالك بن نبي الفكر، ظروف تاريخية واحدة. استمد كل منهما فلسفته، وفكره، من مصادر واحدة وروافد متماثلة تماما. فكل منهما ابن بيئة إسلامية ومحيط ديني محافظ، ارتبط بالإسلام وفهمه عقيدة وشريعة، وكان حبه لله ولرسوله كبير، لم تؤثر فيه دعوات الإلحاد بل كانت تلك تزيده تمسكا بالإسلام، وحبّا له، ودفاعا عنه، وتزيده تخلقا بأخلاق الإسلام لرفع التحدي و التصدي لدعاة التغريب من أبناء العالم الإسلامي ومن غيرهم. كما اطلع كل منهما على الفكر الإنساني بشكل عام والفكر الإسلامي بشكل خاص، ونال عندهما الفكر الإسلامي القديم والحديث كل العناية، وكل الاهتمام بالمتابعة والدراسة والتقويم

---

1 – الدكتور عبد الوهاب عزام:محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره مطبوعات الباكستان،1954، ص100.

– مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر بيروت، 2لبنان، الطبعة الثالثة،1969، ص35.

والمراجعة، كما نال الفكر الغربي القديم والحديث نفس العناية والاهتمام
وكان للفكر الغربي والحضارة الغربية بشكل عام الأثر البارز في فلسفة
إقبال وفكر مالك بن نبي. لأن الفكر الإصلاحي الحديث لدى المفكرين هو
مجرد استجابة لفكر غربي،و حضارة غربية غزت العالم الإسلامي
فكانت أمام قيم دينية وتاريخية موروثة، حملها دعاة الإصلاح، وأصحاب
التجديد، في واقع تميز بوجود عالمين اثنين: عالم متخلف مغزو غشته لهب
الاستعمار، فهو يعاني الجهل والفقر والبؤس والحرمان، والعالم الإسلامي
جزء منه. وعالم متحضر، غازي، يعيش الحضارة والمدنية والرفاه
المادي والتنظيم الاجتماعي، وهو العالم الأوروبي. فكان واقع المسلمين
المتميز بالتخلف والانحطاط من جهة وواقع أوروبا المتميز بالتقدم والرقي
العلمي والتكنولوجي والاقتصادي من جهة أخرى، لهما الأثر البارز في
تكوين فلسفة إقبال و فكر مالك بن نبي.

اجتمعت دوافع الإصلاح والحاجة إلى التجديد لدى الشخصيتين، أمام
وضع المسلم المزري دينيا وفكريا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، بسبب
التخلف والاستعمار، وأمام روح إسلامية مغزوة وروح غربية غازية، بكل
ما تملكه الروح الإسلامية من قيم وتراث ومبادئ قوية وسمحى، وما تملك
الروح الغربية وحضارتها من قيم ومنتجات مغرية وبرّاقة، وأمام
محاولات إصلاحية داخل العالم الإسلامي، بعضها يقلد الغرب ويدعوا إلى
الانغماس في تجديده، وبعضها يعرض عن ذلك ويطلب الحياة على القديم
وحده، و وبعضها يسعى إلى ضمان التوفيق والانسجام بين القديم
والجديد.كل ينقد الآخر ويبحث عما يبرّر موقفه وينشر دعوته.

ولما كانت نفس الدوافع والأسباب دفعت الشخصيتين إلى التمسك
بالإسلام، والإطلاع على الفكر الإسلامي القديم والحديث، والاتصال
بالغرب وبحضارته والإلمام بالفكر الغربي وفلسفاته، والنظر إلى واقع
الإنسان المعاصر، المسلم والأوروبي ، فهي الظروف التي جعلت كلا
منهما يفكر في الإصلاح والتجديد، ويقيّم عالم الفكر وعالم الواقع، وينتج
فكرا وفلسفة، وهي التي جعلت المحاولتين الإصلاحيتين للفيلسوفين أكثر
تشابها وأكثر تماثلا، والنقاط التي تجمعهما أكثر من النقاط التي تفرقهما
فعالم الواقع في نظر المحاولتين مريض يحتاج إلى العلاج، فواقع المسلمين
مزري والواقع الأوروبي تسيطر عليه حضارة ذات طابع مادي، وذات
فكر إلحادي أفقد الحياة معناها، وأفقد الوجود الإنساني قيمته، وصار المسلم
ضالا بسبب تخلفه وانحطاطه، وصار الأوربي شاردا بسبب طغيان الاتجاه
الإلحادي المادي على حياته، فالاستعمار والتخلف والطابع المادي للحياة
الأوروبية الغربية. والتي انتقلت إلى العالم الإسلامي كل هذا صنع نظرة
المفكرين الواحدة إلى عالم الواقع، وصنع الحاجة إلى الإصلاح والتغيير

اللاسلكي ... لم تعد تجذبني أحلام الآفاق البعيدة، ولم يستملني مركزا اجتماعي مرموق ...وأصبحت أشعر كأنني حُمِّلت جميع آثام مجتمع يبحث عن الخلاص من بؤسه، كأنني بالنسبة لذلك المجتمع كبش فداء، شاعر بثقل ما حمله من مسؤوليات ومحن وآمال لتحقق له الخلاص بفضل دراسته »[1] . ويقول كذلك حول دور الحركة الإصلاحية في الجزائر، كنموذج في العالم العربي والإسلامي: « فالحركة الإصلاحية، والحركة الوطنية قد ظهرتا إلى النور في هذه الفترة بالذات. وقد بدأت غشاوة الأوشاب التي سادت ما بعد عهد الموحدين في الانفراط و التفتت، تحت تأثير جهد هذا النشاط الأخلاقي والسياسي المزدوج، الذي حررّ الوعي الجزائري، وردّه إلى جادّة التاريخ. كما بدأ تاريخ النهضة الجزائرية، في هذه الفترة بالذات، مع تزايد ضغط الاستعمار الذي كان يرمي إلى استبقاء الطاقات المستيقظة تحت مراقبته »[2].

إنّ التخلف حسب إقبال ومالك، ظاهرة أملتها ظروف عديدة، وأسباب كثيرة، بعضها موضوعي وبعضها ذاتي وهي ليست طبيعية في الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية جمعا. لما يملك الإنسان من قوة وقدرة على التغيير والتجديد والنهضة والتحضر، فالمجتمع الإسلامي عرف في وقت مضى كل مظاهر الازدهار الثقافي والحضاري، وهو يعيش في العصر الحديث ظلمات الجهل والتخلف، لأنه فقد أسباب النهضة والحضارة، وتقيد بعوامل الضعف والانحطاط في المجال الفكري والديني والاجتماعي. وسبيل النهضة هو القضاء على أسباب التخلف من خلال مناهج ووسائل ثقافية وفكرية واجتماعية تكفل الوعي السليم والعمل البنّاء في مختلف قطاعات الحياة وفي شعوب أوروبا الحديثة القدوة والعبرة، وفي شعب اليابان المعاصر المثال الحي لذلك.

فالحضارة من إنتاج الإنسان لا غير، لها شروطها وأسبابها، وهي شروط وأسباب كامنة في الإنسان وفي محيطه، فهي ليست هبة من الطبيعة، أو تنشأ بفعل الصدفة، فهي عالم يبنيـــه الإنسان ويشيّده من الطبيعة، ويضاف إليها، وبما أن الإنسان كائن عاقل فيه جانب الروح وجانب المادة، ومتديّن له صلة بالوجود والذات الكلية، فإنّ شروط النهضة والحضارة ترتبط بكل ما يتصل بالإنسان وبحياته ككائن نفساني، عاقل،

---

1 - مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية، 1984، ص219.

2- مالك بن نبي: آفاق جزائرية (الحضارة، الثقافة، المفهومية)، ترجمة طيب الشريف، مكتبة النهضة، دون طبعة ودون سنة.

اجتماعي، روحاني، ككائن له شيء من الدنيا، وله في العالم الآخر. فالحضارة في فلسفة إقبال تعني بناء الإنسان أولا، الذي يبني حياة في عالم الدنيا، ويكون العالم الآخر استمرارا للحياة الدنيا. وشروط بناء الإنسان ذاتية، وفردية، ونفسية، وروحية، بناء لعالم الداخلي للذات وفق معايير روحية، ثم بناء المجتمع والحياة والتاريخ وفق نفس المعايير، وتكون الحياة برمتها تخدم المبادئ والغايات التي لأجلها تقوم الحياة، وهي مقررة، وبدقة وبعمق كبيرين في روح الإسلام و النصوص القرآنية. فالحضارة الحقة، أساسها روحي، وطابعها روحي، ومقاصدها وغاياتها روحية، وما الجانب المادي فيها إلا لخدمة الجانب الروحي.

ويشيد إقبال أي نهضة وكل حضارة تعبد الجانب المادي من الحياة وتستند بالروح، والإسلام في نظره هو الذي « يكفل له ــ للمسلم ــ أخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس و حشي، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية. »[1] ويكاد يتفق مالك بن نبي على نفس المفهوم والمعنى، فالحضارة عنده هي: «مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه. »[2]

فالانطلاق والنهضة والحضارة كل هذا يتم بالتغيير الذي يحصل في ذات الفرد، وفي حياته، وفي مجتمعه وفي العالم ، لغرض الوصول إلى السمو الروحي والأخلاقي والفكري، وهذا يشترط معايير أخلاقية فضلى، وهي ذات أصل روحي، وبلوغ الازدهار الاقتصادي والانسجام الاجتماعي يشترط مناهج وأدوات متطورة لبلوغ التوازن بين المجال الروحي والمجال المادي، ويشترط هذا التوازن تطور العوامل الروحية والمادية وتكاملها.

يتفق محمد إقبال ومالك بن نبي اتفاقا تاما، على أن أية حركة نهضوية في التاريخ، وأية حضارة يشهدها الإنسان في مرحلة تاريخية ما، تكون حاصل فعل التغيير أو التغير الذي يطرأ على الإنسان باعتباره الكائن الوحيد الذي يتحضر، و كتب له (الله) الاستخلاف في الأرض والتغيير له طابعه الخاص، كما له مجالاته. فطابعه روحي في الأصل، ومجاله ذات الإنسان ونفس الفرد، أولا، ثم المحيط الطبيعي والاجتماعي ثانيا، وتلك

1- محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص217.

2- مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص46-47.

سنة سنها الله في مخلوقاته، ويعبر عنها القرآن في قوله تعالى: « إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ».[1] يقول إقبال في هذه السنّة: « وفي هذا المنهج من التغير التقدمي، لا يكون الله في عون المرء على شريطة أن يبدأ هو بتغيير ما في نفسه. ».[2] ويؤكد مالك بن نبي ذلك بقوله:« هذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها كقانون إنساني وضعه الله عزّ و جل في القرآن، كسنّة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر. ».[3] والتغيير في داخل النفس يمس المفاهيم والتصورات والمعاني، ومعنى الإنسان ومعنى الحياة ومعنى الوجود ووجبات و حقوق البشر، كما يمس أنماط وطرق التفكير، ومناهج وأساليب العمل، ويمس القيم التي يؤمن بها الإنسان والمبادئ التي تقوم عليها حياته والغايات التي لأجلها يحيا، هذا التغيير في معطيات الذات الإنسانية، يجرى بعد ذلك في الواقع الاجتماعي والطبيعي، ومتى كان التغيير سليما ومتوازنا كانت الحضارة، ودخل صاحبها التاريخ، ومتى كان التغيير ضعيفا ومختلا فسدت الحياة، وازداد الإنسان انحطاطا وتخلفا. فالتغيير بالنسبة للفرد هو تبدّل في الفكر والثقافة والأخلاق، أما بالنسبة للمجتمع فهو تحوّل في النظام الاجتماعي العام، بعاداته وتقاليده وقوانينه، أما بالنسبة للطبيعة فيتجسد في تسخير ظواهرها وتحويلها من صورة غير نافعة إلى صورة نافعة، بواسطة أدوات ومعارف ومناهج معينة، والتغيير في هذه المجالات ككل متحدة، هو تغيير في حياة الإنسان ككل، بدونه لا نهضة و لا حضارة.

يتضح مما سبق أن ما يتفق عليه المفكران أن الحضارة يبلغها الإنسان عندما يصل إلى درجة السمو الروحي والأخلاقي والفكري، هذا السمو الذي يطوّر الحياة في مختلف جوانبها، والحضارة بهذا المعنى لا تتكون إلاّ بفعل التغيير الذي يشهده الإنسان في حياته الذاتية الفردية الداخلية أولاً، ثم في خارج هذه الحياة ثانيا. والتغيير بهذا المعنى هو ما يعرف بالتجديد الحضاري، وهذا الأخير له شروطه وميادينه ومراحله وأهدافه ومراميه، ويكون وراء أية نهضة تاريخية، ومحرك أيّة دفعة حضارية. ومثال ذلك الحضارة الإسلامية، فكان وراءها التغيير الذي شهده المسلمون الأوائل في أنفسهم وفجّر التغيير الذي شهدته حياتهم، فشهدوا تجديداً لا مثيل له في عصرهم، هذا التجديد التي أنتج حضارة راقية

---

[1]- قرآن كريم:سورة الرعد الآية11.

[2]- محمد إقبال تجديد التفكير الديني في الإسلام ،ص19.

[3]- مالك بن نبي:دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1978، ص58.

عامرة بالإيمان، وزاخرة بالعلوم والفنون والصناعات، كان ذلك بفعل الإسلام الذي بنا ذاتا إنسانية إسلامية، دخلت التاريخ من بابه الواسع بعد العزلة، كما بنا مجتمعا إسلاميا قويا عرف الحضارة والمدنية بعد سذاجة وبداوة، وهذا يدلنا إلى أن التغيير السابق على كل صحوة حضارية يستهدف بناء الإنسان، وقولبة ذاته ووجوده الفردي أولا وقبل كل شيء، ثم بناء المجتمع وتحويل الواقع لخدمة مرامي الإنسان وغاياته القريبة والبعيدة.

ولا نستطيع أن نميز بين فلسفة إقبال ونظرية مالك بن نبي حول دور الدين في بناء الإنســـان والحضارة والتاريخ، فإقبال يعتبر الإنسان المسلم، المتحلي بأخلاق الله هو الإنسان الكامل، لأجله وجد كل شيء، هو إنسان القوة والحضارة والتاريخ، وما سواه زيف وباطل. والحياة في أصلها روحية وفي مصيرها روحية ذلك ما قرره الإسلام، ويبيّن إقبال الدور الذي يلعبه الدين، وتلعبه الفكرة الدينية في تحريك التاريخ، وتشكيل الحضارة من خلال الدور الذي لعبه الإسلام في التاريخ فيقول: « الإسلام بوصفه حركة ثقافية ... ونظاما عاطفيا يقول بوحدة الكلمة، يدرك قيمة الفرد، من حيث هو فرد، ويرفض اعتبار قرابة الدم أساسا لوحدة الإنسانية ... ولا يتيسر التماس أساس نفساني بحت لوحدة إنسانية إلاّ إذا أدركنا الحياة الإنسانية جميعا روحيا في أصلها ومنشئها... ولهذا كان أمرا جدّ طبيعي أن يشرف نور الإسلام بين قوم سذج لا يعرفون شيئاً من ثقافات العالم القديم، و تقع بلادهم في رقعة من الأرض تلتقي فيها قارات ثلاث، و تجد الثقافة الجديدة في مبدأ " التوحيد " أساساً لوحدة العالم كله. والإسلام بوصفه دستورا سياسيا ليس إلاّ أداة عمليـــة لجعل هذا المبدأ عاملا حيّا في حياة البشر العقلية والوجدانية.»[1] ويؤكد مالك بن نبي أفكار محمد إقبال حول دور الدين في بناء الإنسان والتاريخ والحضارة، بأسلوبه، ومعجميته، وفي إطار منهجه، ونظريته التي تعتبر الحضارة حاصل جمع العناصر الثلاثة، وهي الإنسان والتراب والوقت.و لكن هذه العناصر لا تجتمع وتتآلف وتتكامل إلاّ بفعل الدين الذي يركّب فيما بينها. إذ يقول في ذلك: «فدورة الحضارة إذن تتم على هذا المنوال، إذ تبدأ حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة أو"عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين" (Ethos) على حد قوله < كيسرلنج > كما تنتهي حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة والمكبوحة الجماح.»[2] يقول

1- محمد إقبال:تجديد التفكير الديني في الإسلام،ص170.169.168

2- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص105.

لا يختلف محمد إقبال عن مالك بن نبي في نظرته إلى العلم والتاريخ، باعتبار كلاً منهما مهم وأساسي في الحضارة، فالعلم والتجارب العلمية عند الأول مردها الواقع والتجربة الواقعية وهي وسيلة لبلوغ الحقيقة، أما الدين والتجربة الدينية مردها الروح، وهي وسيلة لبلوغ الحقيقة، فهما معا لا يتعارضان بل يتكاملان ولهما نفس الهدف، هو الكشف عن الحقيقة، التي هي في أصلها روحية والطبيعة.« والتاريخ أو بتعبير القرآن أيام الله، جانب الرياضة الروحية والطبيعة.[2] هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناء على ما جاء في القرآن.» .

ويشكل العلم بمفهومه الواسع محرك النهضة وصانع الحضارة عند مالك بن نبي، والطابع الذي تتميز به الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة علمي محض. أما التاريخ فهو عنده الإطار الشامل لكل فعل حضاري ولكل حركة نهضة تتخلله، فالتاريخ هو الإنسان والمجتمع والحضارة والتقدم والرقي في الحياة.

قام كل من محمد إقبال ومالك بن نبي بفحص وتمحيص واقعه المعاش، فكرياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً. وقام بالمراجعة والتقويم للفكر الإصلاحي الذي شهده عصره، وانتهى إلى غياب الرؤية الفلسفية إلى الإنسان والتاريخ والحضارة، وانصبت فكرة الإصلاح والتجديد عنده على مراجعة وتقويم ونقد جوانب عديدة من الفكر الإسلامي القديم، مثل فكر ابن خلدون ونظريته في الدولة، وعلى المحاولات الإصلاحية لزعماء الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، مثل دعوة جمال الدين الأفغاني، ودعوة محمد عبده، وغيرهما، خاصة دعاة المسالمة مع الاستعمار والفكر الغربي. قام محمد إقبال بنقد جوانب كثيرة من الفكر الإسلامي وأخرى في الفكر الغربي كما انتقد الحركة الإصلاحية الحديثة وفي العالم الإسلامي،وكتابه " تجديد التفكير الديني في الإسلام " يدل على ذلك وكان يقتبس من الفكر الغربي ولا يرى في ذلك حرجا، مادام لا يتعارض مع القيم والسياق التي يؤمن بها، ولا تتعارض مع الإسلام كما انتقد بشدة الفكر الإصلاحي العربي، وسار في طريقه فيلسوف الحضارة مالك بن نبي.

كلاهما استطاع بمحاولته الفكرية الإصلاحية ونظريته الفلسفية أن يقدم رؤية فلسفية للإنسان والتاريخ والحضارة، وكلاهما له فكر قوي، وفلسفة تميزت بالمتانة والدقة والعمق. فلسفتهما تلتقيان في الفضاء النظري

1- مالك بن نبي : آفاق جزائرية، ص 43.

2- محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 159

والمنبت والمبتغي. هذا المبتغي الذي يحدده إقبال بقوله: « فعلى المسلم اليوم أن يقدّر موقفه، وأن يعيد بناء حياته الاجتماعية على ضوء المبادئ النهائية، وأن يستنبط من أهداف الإسلام، التي لم تتكشف بعد إلا تكشفا جزئيا، تلك الديمقراطية الروحية التي هي منتهى غاية الإسلام ومقصده[1]». وهو مبتغي ومقصد مالك بن نبي الذي يقول فيه: « وإنّما لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضويا، يستغله الرجل الواحد، أو يظلله الشيء الواحد، بل ليكن سيرنا علميا، عقليا، حتى نرى أن الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملففة، ولا مظاهر خلابة، وليست الشيء الوحيد، بل هي جوهر ينتظم جميع أشيائها وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية. [2]».

2- الاختلاف: الحضارة بين النظرة الفلسفية الصوفية و بين الفكر العلمي المعاصر.

إذا كان فكر محمد إقبال قد التقى في أكثر من نقطة مع أفكار مالك بن نبي، ومع رؤيته إلى التاريخ والحضارة، وهو أمر طبيعي جدّا له أسبابه وظروفه الموضوعية، لأن الأمر يتعلق بمحاولتين فكريتين فلسفيتين لمفكرين من عصر واحد، ولهما مشاكل وهموم واحدة، ولهما انتماء ديني وتاريخي واحد، ولهما تطلعات وآمال واحدة. وإذا كان المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يظهر فيه فكر المفكر أو فلسفة الفيلسوف يترك بصماته وبقوة، في الاتجاه المؤيد أو في المسار المعارض على ذلك الفكر، وعلى تلك الفلسفة، فإن الفكر الإصلاحي في العصر الحديث في العالم الإسلامي، وفي أيامنا هذه من إنتاج البيئة الذي يعيش فيه زعماء الإصلاح ودعاة التجديد. ويرتبط هذا الفكر كذلك بزعمائه ودعاته. وبشخصياتهم ومواهبهم وعبقرياتهم في دراسة الواقع، وحصر دواعي الداء، وتحديد كيفيات العلاج، وأسلوب الدعوة ومنهج التجديد وطبيعته والتحكم فيه، فكل هذا ينطبق على فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي، وعليه ففلسفة إقبال تختلف عن نظرية الحضارة والتجديد الحضاري عند مالك بن نبي في أكثر من نقطة، رغم ما يجمع الشخصيتين من روابط تاريخية ودينية متينة، هذه الروابط التي تجلّت و بوضوح في فكر كل منهما، من حيث مرجعيته الفكرية والتاريخية والاجتماعية والعقيدية، ومن حيث المشكلات التي واجهته وعالجها، ومن حيث المبادئ والأسس والمنطلقات

1- المرجع نفسه: ص208.

2- مالك بن نبي : شروط النهضة، ص239.

التي انطلق منها، ومن حيث العديد من النقاط التي تخص المنهج المتبع في البحث والدراسة، أو في اقتراح الحلول للمشكلات، ومن حيث الأهداف والغايات التي كان يسعى إليها.

إن التماثل الفكري والتقاطع الفلسفي بين فلسفة محمد إقبال وفكر مالك بن نبي لم يمنع الاختلاف بينهما في أكثر من مسألة، وفي أكثر من حل، وفي المنهج وأمور أخرى، وإذا كان فكر المفكر مرتبط بمحيط صاحبه الاجتماعي، حقيقة ثابتة، فإن بيئة محمد إقبال الاجتماعي في شمال إفريقيا، تختلف بعض الشيء عن محيط مالك بن نبي الاجتماعي في الهند، هذا الاختلاف في بعض العادات والتقاليد والأعراف، وعند قراءة حياة إقبال في الهند وسفره إلى الخارج ونقرأ حياة مالك بن نبي وتنقلاته من خلال كتابه " مذكرات شاهد للقرن " وهو يروي قصة حياته بشيء من التفصيل والدقة يتضح التمايز بين الشخصيتين الناتج عن التباين الطفيف بين الوسطين الاجتماعيين، وسط إقبال ووسط مالك. وطبيعي أن إقبال تأثر بالظروف المحيطة به في الهند وباكستان ،كما تأثر كغيره بظروف العالم الإسلامي وما تميز به من ضعف وتخلف وانحطاط، وبظروف العالم الأوربي الغربي وما تميز به من تقدم علمي وتكنولوجي وتحضر. ومالك بن نبي هو الآخر تأثر بالظروف المحيطة به في الجزائر وفي العالم العربي والإسلامي وبما يجرى خارج الجزائر والعالم الإسلامي، ذلك التأثر انعكس في فكر كل واحد منهما وبان في فلسفته.

لقد تفلسف محمد إقبال وتفلسف بعده مالك بن نبي، ولكن لكل منهما فلسفته الخاصة به، فلسفة لها طابعها الخاص والمتميز، ولكل منهما فكر طبع بطابع معين. أما فلسفة إقبال جاءت في مستوى الفلسفات القديمة، لكنها بمفاهيم ورؤية جديدة مزجت بين قيم الفكر الغربي وقيم الإسلام الذاتية، ومن حيث القوة والعمق، ومن حيث فضاء التفلسف النظري، ومن حيث النقد والمراجعة والتقويم في الفكر الإنساني القديم، والحديث، ومن حيث الموضوعات وهي: الإنسان، النفس، الوجود، الذات الكلية وغيرها نجد فلسفة إقبال تشبه فلسفة الكندي أو الغزالي. فقد درس الفكر الإنساني عامة بما في ذلك الفكر الإسلامي عبر التاريخ، كما اطلع بعمق على الفكر الغربي، وكان مسلما محبّا لدينيه، راح ينسق ويّوفق بين محتويات الحضارة الغربية، والفكر الغربي، وبين القيم الدينية والتاريخية في العالم الإسلامي لا على أساس موائمة الإسلام لتلك القيم الجديدة، ولكن على أساس الاستفادة من الحضارة الغربية والفكر الغربي بما يتلاءم مع القيم الذاتية للإسلام التي تتكشف شيئا فشيئا، وكان بهذا العمل في كتابه " تجديد التفكير الديني في الإسلام"، يشبه الغزالي. في كتابه " إحياء علوم الدين"، ويشبه الفارابي والكندي وابن رشد في محاولة التوفيق من الفلسفة اليونانية

ورؤية الإسلام إلى الكون. فقط يختلف إقبال عن هؤلاء في كونه أستخدم معجميه هيجل وبرغسون وهوايتد، وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين المحدثين، أما هؤلاء فاستخدموا معجمية أفلاطون وأرسطو وأفلوطين، وغيرهم من فلاسفة اليونان. والميزة الطاغية في فلسفته التأمل النظري وسعة النظر الفلسفي وعمقه، ورحابه التفكير الميتافيزيقي، « فقارئ " إعادة تركيب الفكر الديني في الإسلام "، لا يتمالك الشعور الطاغي بسعة علمه، وبرحابة تأملاته الميتافيزيقية والدينية. [1]» .

أما المحاولة الفكرية الإصلاحية التجديدية التي جاء بها مالك بن نبي، فتميزت بطابعها العلمي، وهذا أمر طبيعي لأن تكوين صاحبها علمي، فهو خريج كلية الهندسة الكهربائية، وهي محاولة ذات طابع اجتماعي. لم يتفلسف في النفس والوجود والله، مثلما فعل إقبال، بل ركز على الحضارة من حيث عوامل و شروط قيامها، وأسباب انهيارها، كما ركز على ما يسمح للمجتمع بالازدهار والتطور، وما يمنعه من ذلك، وما يدفعه إلى السقوط في الهاوية. وضع جميع مؤلفاته في سلسلة " مشكلات الحضارة "، و كتابه " شروط النهضة " يتضمن النظرية الجديدة التي جاء بها، وتخص الحضارة من حيث شروطها وأطوارها وعناصرها ومشكلاتها، وجميع الكتابات الأخرى كانت في هذا الاتجاه، على الرغم من أنها ركزت على العالم الإسلامي وظروفه وأحواله ومشاكله، وسبل ولوازم الخروج من أزمته. و لم تكن أفكاره تتميز بالعمق الفلسفي، و التأمل الميتافيزيقي والنقد العميق الذي عرفته فلسفة إقبال، لكن هذا لا يعني أن فكر مالك بن نبي كان خاليا من الطابع الفلسفي، والدقة والعمق والنقد، بل فلسفته تمثل رؤية ذات نسقية فلسفية إلى التاريخ والحضارة، والحياة في جوانبها الروحية والاجتماعية والمادية. والطابع الفلسفي العلمي الاجتماعي الذي تميز به فكر مالك قال عنه الباحث أنور الجندي: « مالك بن نبي يختلف كثيرا عن الدعاة المفكرين والكتاب، فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق، الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة، والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم، وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية.[2]» . يتضح مما سبق أن إقبال فيلسوف، وفلسفته طابعها ميتافيزيقي، وعلى النمط القديم لكنه بمناهج ومقولات جديدة. أما مالك بن نبي فيلسوف اختص في الحضارة وكان شبيها بعالم

1- ماجد فخري: " تاريخ الفلسفة الإسلامية، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1974، ص482.

- أسعد السحمراني: مالك بن نبي(مفكرا إصلاحيا)، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1986، 2ص22.

الاجتماع، لطغيان الأسلوب العلمي على فكره، ولم يمنعه ذلك من تقديم رؤية فلسفية إلى الحضارة والتاريخ والتقدم.

وإذا اختلف فكر إقبال الإصلاحي عن فكر مالك بن نبي في طابعه ونمطه، فجاء الأول فلسفيا ميتافيزيقيا عالج أمهات القضايا الفلسفية، وجاء الثاني علميا اجتماعيا عالج قضية التخلف والحضارة كما هما في المجتمع والتاريخ، فطبيعي أن يكون هناك اختلاف بينهما في المنهج واللغة. أما بالنسبة لمنهج إقبال فهو التأمل الفلسفي الميتافيزيقي، القائم على التحليل والنقد والاستنتاج. والمبني على المراجعة والتقويم والهدم، وإعادة البناء. وكان إقبال شاعرا، انتهج أسلوب الشعر لنشر دعوته وتوصيل محاولته الإصلاحية إلى الغير، وكان لشعره صدى واسعا في البلاد الإسلامية، وغيرها. والطابع النظري الميتافيزيقي طبع طريقة إقبال في التفلسف بطابع النظر العقلي إلى مختلف القضايا، وطبع لغة هذا التفلسف، وهذه المحاولة الفكرية، ولما كان صاحبها قد أخذ من روافد متعددة ومتنوعة، فجاءت مقولاته متعددة ومتنوعة، ففي فكره نجد مقولات الفكر والعلم اليونانيين،ونجد مقولات الفلسفة الإسلامية، ومقولات الفكر الغربي الحديث، هذا التنوع وهذا الثراء قلما نجه عند واحد من المفكرين المحدثين. أما منهج مالك بن نبي فمطبوع بطابع فكره ونظريته، والموضوعات التي ركز عليها، وتميز هذا المنهج بارتباطه بالإسلام وبالفكر الإسلامي القديم والحديث، وبالفكر الغربي، كما ارتبط بواقع المسلمين الديني والأخلاقي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والفكري، وقام على التحليل العلمي لحوادث التاريخ والواقع، وعلى الصرامة المنطقية في حصر المشكلات وبحثها وتحديد الحلول والمخارج من هذه المشكلات. كما قام على النقد والتقويم للفكر الإصلاحي القديم والحديث من جهة، ولفلسفة التاريخ عند مفكري الإسلام قديما وعند مفكري الغرب حديثا. وتميز هذا النقد بالفحص والتمحيص، وبالموضوعية وبالصرامة المنطقية، ونظرا لطبيعة هذا الأسلوب العلمية النقدية المنطقية، تمكن من السيطرة على جوانب المشكلة الرئيسية في البحوث التي قام بها مالك بن نبي ، وتمكن من الوصول إلى نظرية جديدة في الحضارة، لم يسبق لها مثيل، هذه النظرية يتضمنها كتاب " شروط النهضة " وتتضمن بعض جوانبها كتب أخرى. ولفكر مالك بن نبي معجميته التي تتعدد وتتنوع بتعدد وتنوع وغنى وثراء فكره، وهي معجمية مرتبطة بالعلوم الإنسانية ومجالاتها، فهي معجمية علمية، وليست ذات طابع فلسفي محض، أي بالمعنى الكلاسيكي، مثلما هو الحال عند إقبال. حيث تأخذ من علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة، وكذلك تأخذ من الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، وغيرها كما تأخذ من الإسلام والتاريخ

الإسلامي،وواقع المسلمين، وحضارة أوربا الحديثة والفكر الغربي الحديث،وإذا كانت مقولات إقبال هي مفاهيم فلسفية غربية تعبر عن فكر إسلامي. فإن مقولات مالك بن نبي هي مقولات علمية تعبر عن نظرية جديدة وفكر فلسفي إسلامي، جاء لإنقاذ الأمة من محنتها.

ولما كان فكر إقبال يتميز بالطابع الفلسفي الميتافيزيقي، وبالمنهج الفلسفي النقدي، وباللغة الفلسفية القوية المتينة، نجده روحيا في توجهه وفي مساره، من الانطلاق إلى المبتغى، يعتبر إقبال الحياة في أصلها وفي مسارها وفي منتهاها روحية، وهو ما يقرره الإسلام في النص الديني، وأسمى تجربة في حياة الإنسان تمنحه الحقيقة، وتعرفه بالذات الكلية المطلقة، هي التجربة الصوفية، ومجالها الدين والروح والإصلاح أو التجديد إنما في الحياة الروحية أولا وقبل كل شيء، وليس بإصلاح الأطر والمظاهر، وكل تغيير في حياة الإنسان لا ينبعث من الروح ولا يجري فيها، ولا يرتبط بقيم الدين ومبادئه ولا بالذات الكلية، هو تغيير لا يضمن لأصحابه بلوغ السمو الروحي والفكري الذي هو مبتغى الإسلام ومقصده، وهو قمة التحضر والتمدن. وسبيل بلوغ هذا السمو، وهذه الحضارة هو التجربة الصوفية، والرياضية الدينية، التي تسمو بصاحبها فيبلغ الاتصال، بالذات الإلهية، ليس عن طريق الفناء كما هو الحال في الفلسفة الإشراقية، وإنما عن طريق أن تصير الذات ذاتا، وليس أن ترى الأشياء فقط.

إنّ الفكر الإصلاحي عند مالك بن نبي، وإن كان قد أعطى مكانة كبيرة للفكرة الدينية في نظرية الحضارة، وفي إنشاء العلاقات الاجتماعية، وشبكة العلاقات الاجتماعية، وحمايتها من التفكك والتلف، فلم يتجه الاتجاه الروحاني الصوفي المعروف في فلسفة إقبال. واتجه اتجاها علميا متأثرا بنتائج ومناهج العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية مثل الكيمياء والبيولوجيا ومثل علم النفس وعلم الاقتصاد. كما نحا منحى واقعيا ليس على حساب البعد الأخلاقي أو الديني، فالأخلاق عنده إطار توجيهي ضروري لضمان الانسجام بين شروط ولوازم التحضر، والمحافظة عليها، والدين هو العنصر الرابع المركب بين عناصر الحضارة، فمتى كان الدين كانت الحضارة، ومتى غاب الدين فلا حضارة ولا تجديد حضاري. والواقعية الاجتماعية هي أهم ما تميز به فكر مالك بن نبي، الذي اتجه إلى واقع الفرد، البيولوجي الطبيعي، والنفساني والفكري والأخلاقي والديني.حلل هذا الواقع بشكل عام ،وركز على واقع المسلم في عالم التخلف وفي عالم التحضر بشكل خاص، وحصر مشاكل هذا الفرد، وشخص أمراضه، وحدد أسباب وسبل و كيفيات الوقاية والعلاج. كما اتجه صوب المجتمع الإنساني بشكل عام والمجتمع الإسلامي بشكل خاص وحلل واقعه الديني والفكري، والأخلاقي والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، وشخص أمراضه

وحصر مشاكله، وقدم له سبيل الخروج من الأزمة وأسلوب الوصول إلى الحضارة، وبلوغ التقدم والازدهار.

إنّ فكرة الإصلاح والتجديد في فلسفة إقبال تمثل جزءاً من هذه الفلسفة، فهي تدخل في إطار نظرته ورؤيته إلى الحياة، والإنسان والذات والوجود وغيرها، وليست فكرة مستقلة بذاتها، فهي ارتبطت بفلسفته عامة، تستشفها من نظرته إلى الذات وإلى الوجود، وإلى الحياة، كما تستشفها من نظرته إلى الدين وإلى الإسلام خاصة، وإلى الرياضة الروحية، وغيرها من المسائل التي تدخل في صميم الفلسفة. كما ترتبط كذلك بالدراسة التحليلية النقدية العميقة التي قام بها إقبال للاتجاهات الفلسفية القديمة والحديثة، كالفلسفة اليونانية ومنها بعض الجوانب في فلسفة سقراط وأخرى في فلسفة أفلاطون، وأخرى في فلسفة أرسطو. ومثل الفلسفة الإسلامية ومنها بعض الجوانب في التصوف، وفي فلسفة أبي حامد الغزالي، وفي فكر ابن خلدون وغيره. وكذلك انتقد الفكر الفلسفي الغربي وكذلك الحضارة الغربية، وما تميز الإنسان الأوربي المعاصر، صاحب هذا الفكر وهذه الحضارة، ذات المنتجات البراقة والمغرية. يظهر من هذه المعطيات أن فلسفة إقبال ذات طابع ديني تميزت بالشمول والعموم في عصر التخصص في البحوث والدراسات العلمية والفلسفية. وهي تختلف إلى حد ما بطابعها هذا عن فلسفة مالك بن نبي، التي تمثل فكراً متميزاً قام هو الآخر على المنهج العلمي، وعلى التحليل والنقد، ولواقع الشعوب المتخلفة عامة، وللعالم الإسلامي الذي ظل يتخلف، وطالت أزمته. وللفكر الإصلاحي في عصره، ولحضارة أوربا الحديثة وللفكر العربي الحديث، وانطلاقاً من ذلك ظهرت نظرية الحضارة، كرؤية جديدة إلى التاريخ، وكحل لأزمة التخلف والانحطاط في حياة الإنسان، ولم تكن هذه الدراسة ولا هذه الرؤية في مستوى الشمول الذي عرفته فلسفة إقبال، ولا هي فلسفة دينية، هدفها إصلاح الفكر الديني، بل نظرية خاصة بالحضارة، تدخل في إطار فلسفة التاريخ، غايتها حل مشكلات الحضارة وهي مشكلات مرتبطة بحياة الإنسان اليومية في جميع ميادينها، روحيا واجتماعيا ومادياً. ويظهر التباين بين فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي في هذه المسألة من خلال ما يصرح به المفكران. يقول محمد إقبال: «لم أحاول بناء الفلسفة الدينية بناء جديداً، لأخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة. واللحظة الراهنة مناسبة كل المناسبة لعمل كهذا. أيرد لما مالك بن نبي فيقول:» ولو حللنا حياة مجتمعنا لوجدنا فيه أوقاتاً جديدة تمثل في

1- محمد إقبال: تجديد الفكر الديني في الإسلام، ص 152

جملتها على نزعات متباينة، واستعدادات فردية متنافرة، في مجتمع فقد توازنه القديم، وببحث الآن عن توازن جديد ... وأنّ قضيتنا منوطة بذلك التركيب الذي من شأنه إزالة المتناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم. وذلك بتخطيط ثقافة شاملة، يحملها الغني والفقير، والجاهل والعالم، حتى يتم للأنفس استقرارها وانسجامها مع مجتمعها، ذلك المجتمع الذي سوف يكون قد استوى على توازن الجديد.» [1].

تصدى محمد إقبال للفكر الغربي الإلحادي، وعمل على إبراز ما فيه من نقص و اعوجاج، له أثر سلبي كبير على حياة الأوروبي المعاصر، وأثره سلبي وأكبر على حياة المسلم المعاصر، وتعمق في التحليل والنقد بعد الفهم والاستيعاب، و تجلى ذلك بوضوح في مؤلفه " تجديد التفكير الديني في الإسلام ". وهي محاولة فكرية رفيعة المستوى، وصيحة فيلسوف في وجه حاملي الفكر الغربي الإلحادي في أوربا وفي العالم الإسلامي، من أبناء المجتمع الإسلامي، ودعوة إلى الإصلاح والتجديد وفق ما تمليه السنن الكونية، ووفق القيم الذاتية للإسلام ومبادئه الثابتة وأهدافه القريبة والبعيدة. ويقول الأستاذ محمد البهي في هذه المحاولة: «إنّ إقبال في تجديد التفكير الديني في الإسلام، كان جامعيا في محاولته ... في عمله الفكري للخاصة، وفي اعتبار هذا العمل لجيل معين، وهو جيل التفكير الوضعي، أو التفكير المادي الإلحادي.» [2] .أما مالك بن نبي فتصدي لظاهرة التخلف في العالم المتخلف عامة، وفي العالم الإسلامي بصفة خاصة، كما تجند لوضع خطة فكرية وفلسفية وإستراتيجية لبناء الحضارة ، والتمكن من المدنية والتقدم الاجتماعي. وتمحورت فلسفته ككل على مسألتين، مسألة التخلف والانحطاط، من حيث أسبابه ودوافعه وسبل القضاء عليها والوقاية منها، ومسألة الحضارة من حيث شروطها وعواملها تكوينها وازدهارها وعوامل انهيارها وأفولها. والأسلوب الذي سلكه في طرح المشكلات ومعالجتها ومناقشتها وما تميز به، من مواصفات علمية وموضوعية ومنطقية جعل محاولته موجهة للجميع، وليست للخاصة مثلما هو حال محاولة إعادة تركيب الفكر الديني في الإسلام لمحمد إقبال. وعرف فكر مالك بن نبي إقبالا كبيرا من قبل القراء والمثقفين، سواء في حياة "مالك" ومن خلال محاضراته في الجزائر وخارج الجزائر، خلال الاستعمار وبعد الاستقلال، أو من خلال الندوات التي كان يعقدها في بيته،

1- مالك بن نبي : شروط النهضة، ص239

2- محمد الباهي:الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر للطباعة و النشر، ط6، سنة1973، ص495.

في الجزائر العاصمة، كما نال فكره إعجاب العديد من تلاميذه وأصدقائه المقربين إليه الذين دافعوا عنه وذكروه وذكروا قوته في أكثر من مناسبة وفي أكثر من كتاب. وعليه، فإذا كان محمد إقبال، قد كتب للخاصة من أصحاب الفكر الوضعي، المادي الإلحادي، وجاءت فلسفته تتميز بعمق التأمل الفلسفي، ورحابة التفكير الميتافيزيقي، فإن الإصلاح والتجديد في فلسفة مالك بن نبي استهدف القضاء على الجهل والجوع والمرض والاستعمار والقابلية للاستعمار، وغيرها من ظواهر التخلف، التي يعاني منها العالم الإسلامي المعاصر، ويستهدف وضع نظرية في الحضارة والتاريخ تضع حدّا للتخلف، وتفتح الآفاق والمجال واسعا لبناء الحضارة وازدهارها واستمرارها، وإن كان يلتقي في فكره هذا، مع فلسفة إقبال في أصولها و مقاصدها.

ومما يتميز به فكر محمد إقبال الإصلاحي، وبالنسبة لروافده أنه استمد الكثير من المفاهيم والمناهج من الفكر الغربي وتأثر بفكر وآراء المستشرقين، وكان إقبال يناقش كبار الفلاسفة وينقد أفكارهم، وينسق، ويجمع بين هذه الأفكار حتى قال عنه الأستاذ ماجد فخري في كتابه " تاريخ الفلسفة الإسلامية ": «فهو عوضا عن أن يستند إلى التاريخ في التعبير عن النظرة الإسلامية إلى الكون تعبيرا عصريا، جريا على سنة أمير على، يعمد إلى الاقتباس من التراث الفلسفي الغربي دون تحفظ، ولم يكن غرضه من ذلك التدليل على أصالة النظرة الغربية، بل كان بالأحرى اتفاقها مع الرؤيا القرآنية للكون» .[1] بينما تناول "مالك" ظاهرة التخلف وقضية الحضارة في إطار فلسفة التاريخ، ومن خلال نقد فلسفة التاريخ عند القدماء، ولدى المحدثين، وإن كان قد اقتبس ، فليس من جميع الفلسفات بل من فلسفة التاريخ ومعتمدا على ما يخدم نظريته ورؤيته إلى الحضارة والإنسان والتاريخ.

ارتبط الإصلاح والتجديد في فلسفة إقبال، بالإسلام أولا وبمناهج ونتائج الفكر الغربي الحديث، والحضارة الغربية الحديثة ثانيا. أي بمحاولة فكرية وفلسفية، بكل ما تحمله النظرة الفلسفية من ميزات ومواصفات، وبكل ما يتطلبه النسق الفلسفي من انسجام، وتكامل في بنيته، وبين عناصر ومحتويات هذه البنية. وجاء هذا البناء الفلسفي يتضمن بناء الفلسفة الدينية والفكر الديني، بناء جديدا، يرفض الفكر الديني القائم في حياة المسلمين ولدى المفكرين المسلمين وزعماء الإصلاح، كما يرفض العديد من جوانب الفكر الديني التي ورثها واستقرت في مجاله، وفي الوعي الإسلامي

---

[1] - ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية، دار الشورى، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981، ص 477.

المعاصر، ورفض جوانب كثيرة في الفكر الغربي، خاصة الفكر الوضعي الإلحادي الذي يرد الحياة إلى أسس وأصول مادية محضة. هذا الرفض جاء بعد عملية النقد، أو الهدم التي قام بها المالك، ثم بنا فلسفة دينية وفكرا إسلاميا تميز كل منهما بالجدة في هيكله ومحتوياته، كما تميز بكونه فكرا قويا في نوعه من حيث عمق النقد وبنائه، وسعة الفهم والاستيعاب، وقوة في طرح المشكلات ومعالجتها، ورعاية التأمل الفلسفي الميتافزيقي، ومتانة البناء. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الدقة والعمق في حصر مشكلات الإنسان المسلم المعاصر الذي يعيش التخلف، والجديد مشكلات الإنسان الأوربي المعاصر الذي يعيش الحضارة والفراغ الروحي، كما تمثل من وضع يده على الكثير من الحلول لتلك المشكلات داعيا إلى بلوغ السمو الحضاري، الروحي والمادي معا.

وإذا كان المالك قد توصل إلى تركيب جديد للفكر الديني في الإسلام، أو بناء جديد للفلسفة الدينية في الإسلام، وكانت غايته المراجعة والتقويم والمتابعة أولا ثم إعادة البناء ثانيا و ثالثا وراء هذا العمل الفكري وضعية المسلم والظروف المحيطة به في الداخل والخارج، وهي الوضعية والظروف والدوافع التي كانت وراء فلسفة مالك بن نبي التي تميزت بأنها ليست محاولة لبناء الفكر الديني على منوال محاولة المالك، بل هي محاولة هائمة بالجدة حول ظاهرتي التخلف والتحضر، وعلى ضوء التاريخ، وواقع أوروبا صانعة الحضارة الحديثة، وواقع العالم الإسلامي المتخلف، و تعلق الأمر هنا بالجدة تميز هو الآخر بالموضوعية، والدقة والعمق والعلمية، والصرامة المنطقية، لمشكلات الإنسان عامة والإنسان المسلم والأوربي خاصة، وهي في أصلها مشكلات حضارة لا تطور، والحلول غاية في الموضوعية، والدقة، ومنسجمة مع ما يتطلبه حياة الفرد، والقضية حاجات المجتمع، وينسجم مع سنن الحياة التي يقرها الإسلام، وشكلت أفكار مالك بن نبي ومنهجه وخطته في الإصلاح والتجديد نظرية فلسفية جديدة، قائمة بذاتها، تتحدد بدقة وبموضوعية أسباب التخلف وسبل القضاء عليه، وشروط الحضارة وأسباب انهيارها، وفي نظره كل الحضارات والمدنيات التي شهدها تاريخ الإنسانية لا تخرج عن خط نظريته، حيث يقول: «نستطيع أن نقرر أن المدنيات الإنسانية علاقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الإسلامية والمسيحية، إذا عدنا الحقبة الأولى لظهور فكرة دينية، ثم بدأ أطوارها بتغلب عالمية الأرض عليها، بعد أن تقط الروح ثم العقل ...»[1]

1- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص٦٥-٦٦.

لقد اختلف إقبال في نظرته إلى الإصلاح وإلى طبيعة التجديد، مع نظرة مالك بن نبي إلى ذلك، هذا الاختلاف يتبين من خلال الفرق و التباين بين محتويات كتاب محمد إقبال " تجديد التفكير الديني في الإسلام " ومحتويات مؤلف مالك بن نبي " شروط النهضة " سواء من حيث طرح المسائل وتناولها، أو من حيث طبيعة المنهج المتبع، ومواصفاته، أو من حيث طبيعة التجديد الذي أراده كلّ منهما. فالإصلاح دعا إليه إقبال و بمنهج فلسفي يقوم على أسس روحية، مثالية دينية ذاتية فردية، وله أهداف روحية محضة، تشارك في أعداده التجربة الواقعية و التجربة الصوفية الروحية، ففي الطابع الروحي للإصلاح وفرديته يرى إقبال أن الإنسانية « تحتاج اليوم إلى ثلاثة أمور: تأويل الكون تأويلا روحيا، وتحرير روح الفرد، ووضع مبادئ أساسية ذات أهمية عالمية توجه تطور المجتمع الإنساني على أساس روحي[1] » .وفي دور الدين في بناء الإنسان والحضارة يقول إقبال: « فلا أسلوب التصوف في العصور الوسطى، ولا القومية، ولا الاشتراكية، بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية، البائسة ... والدين هو في أسمى مظاهره ليس عقيدة فحسب أو كهنوتا أو شعيرة من الشعائر. هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصري إعدادا خلقيا يؤهله لتحمل يؤهله لتحمل التبعة العظمى التي لا بد أن يتمخض عنها التقدم العلمي الحديث، وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان الذي تجعله قادرا على الفوز بشخصيته في الحياة الدنيا، والاحتفاظ بها في دار البقاء. إنّ السمو إلى مستوى جديد في فهم الإنسان لأصله و مستقبله من أين جاء، وإلى أين المصير، هو وحده الذي يكفل له آخر الأمر، الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشي، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية، والدين كما بيّنت من قبل من حيث هو سعي المرء سعيا مقصودا للوصول إلى الغاية النهائية للقيم، فيمكنه بذلك أن يعيد تفسير قوى شخصيته هو حقيقة لا يمكن إنكارها[2] » .وفي الطابع الفردي للحياة يقول إقبال «فالحياة كلها فردية، وليس للحياة الكلية وجود خارجي، حيثما تجلت الحياة تجلت في شخص، أو فرد أو شيء...والخالق كذلك فرد ولكنه أوحد لا مثيل له ».[3] وسبيل التجديد هو تغيير الذات في الداخل ثم الانتقال إلى خارج الذات حيث الكون وحيث التسخير والتكيف. والتغيير والتجديد والبناء يكون بالعمل. « فإذا لم ينهض

1- محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص207.

2- المرجع نفسه: ص217.

3- عبد الوهاب عزام: محمد إقبال، سيرته وفلسفته وشعره، ص56.

الإنسان إلى العمل، ولم يبعث ما في أعماق كيانه من غنى ... أصبحت روحه جامدة جمود الحجر و هوى إلى حضيض المادة الميتة[1]».
فالإصلاح والتجديد في فكر إقبال يلازم النقد وإعادة البناء، ويجري في الذات ثم الواقع، ويقوم على أسس فردية روحية دينية.والطريق إليه التجربة العلمية، ومجالها الواقع، والتجربة الصوفية الدينية، وميدانها الروح، ومبتغاه ومقصده هو مبتغى ومقصد الإسلام، وهو الوصول بالإنسان السمو الروحي والأخلاقي، وبلوغ الديمقراطية الروحية التي لم تصل إليها مثالية أوربا، التي فقدت معنى وجودها، لكونها أنتجت ذاتا ضالة، راحت تفتش عن مكان لها، بين ديمقراطيات خالية من التسامح والتعاون والتكامل والتراحم، وكان كل همها هو استغلال الإنسان للإنسان وصارت تلك المثالية أكبر عائق أمام الإنسان في سعيه نحو الرقي والسمو في الأخلاق و الحضارة.

أما الإصلاح الذي دعا إليه مالك بن نبي فله طابعه الخاص، وإن كان يلتقي مع المحاولة الإصلاحية عند إقبال في عدة نقاط. انطلق فكر مالك بن نبي من واقع العالم الإسلامي ومن تخلفه ومشاكله اليومية، في الدين والاجتماع والثقافة والسياسة والأخلاق وغيرها، وهي مشكلات حضارة في الأصل والجوهر. قام هذا الفكر بتحليل واقعه وتحليل واقع الأمم المتحضرة في عصره، وانتقدهما بطريقة علمية، كما حلل وانتقد الحياة الفكرية في العالم الإسلامي المتخلف، وفي أوربا الحضارة. وركز على استيعاب ونقد الفكر الإصلاحي الحديث والمعاصر في العالم الإسلامي، وفلسفة التاريخ في أوربا من خلال رؤية سبنجلر، ومنظور كيسرلنج، ونظرية توينبي، وفيكو وغيرهم. انبثقت عن هذه الدراسة النقدية التي قام بها مالك بن نبي نظريته في الحضـــارة، وفي التجديد الحضاري، هذه النظرية التي تؤكد على البعد الروحي الديني للحضارة، لكون الفكرة الدينية تؤلف بين عناصرها، و توجد الانسجام بين شروطها و لوازمها، كما تضمن لها البقاء والاستمرار والازدهار. ولا حضارة في غياب العدة الدائمة وتمثل عناصر الحضارة الثلاثة، الإنسان والتراب والوقت، وهي ذات طبيعة اجتماعية تاريخية بالدرجة الأولى، وتوفر الفكرة الدينية والعدة الدائمة، يقتضي فعل التغيير الذي يجرى في داخل نفس الإنسان، وفي أعماق ذاته، ثم يجرى في المحيط الذي يعيش فيه، وهي سنة سنّها الله لتسير عليها الحياة، ويقررها القرآن في قوله تعالي:« إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم. [2]». والتغيير يسمح للإنسان بأن ينتج

1- محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص20.

2- سورة الرعد ، الآية 11.

حضارته بنفسه، بعيدا عن الاستيراد والتبعية والمديونية الحضارية، فالحضارة الحقة هي التي تلد منتجاتها، وليس العكس. لذا يجب التمييز بين البناء والتكديس، والأخذ بالبناء لا التكديس، فمن السخرية والسخافة حسب مالك بن نبي عكس القاعدة التي تقول < الحضارة تلد منتجاتها >. ويبقى التوجيه شرطا ضروريا لكل صحوة أو نهضة حضارية، توجيه الإنسان، وتوجيه الأفكار وتوجيه الأشياء. هذه الحضارة عبارة عن تغير يجري على الإنسان في عالمه النفسي الداخلي، وفي العالم الخارجي، أساسه روحي، يظهر في الحياة بجميع مجالاتها. و يتجلى في النهاية في صورة تقدم وازدهار روحي، وتقدم وازدهار مادي، ومتى حصل التوازن والانسجام والتكامل بين الجانب الروحي والجانب المادي، وازدهر كل منهما، بلغ الإنسان قمة التحضر التي هي غاية التاريخ والمجتمع ومبتغى الإنسان.

يتضح مما سبق أن محاولة إقبال الإصلاحية، هي عبارة عن مشروع فلسفي فكري، لبناء الفلسفة الدينية بناء جديدا. ارتبط هذا المشروع بمشروع رؤية فلسفية شاملة، ومنظور فكري شامل، جامع لجوانب حياة الإنسان، قامت فيه إستراتيجية الإصلاح والتجديد على النقد وما يلزمه وعلى إعادة البناء وما تتطلبه عملية البناء، هذا من الناحية المنهجية، أما من الناحية العلمية، فقامت على التغيير التسخير، وعلى الفردية الذاتية الخالصة والمنهج العلمي والأسلوب الصوفي معًا، وعلى أسس روحية ومبادئ وقيم سامية مقررة في مصادر الإسلام الأصلية تمثل مقاصده ومبتغياته. ويتضح لنا أن فكرة الإصلاح والتجديد لدى مالك بن نبي ارتبطت هي الأخرى بمشروع رؤية فلسفية إلى التاريخ وإلى الحضارة وإلى الإنسان،و لم يكن ذلك النقد الفلسفي أو التأمل الميتافيزيقي واردا في منهج مالك بن نبي ،فمشروع رؤيته الفلسفية إلى التاريخ، ومشروع خطته في الإصلاح، ومشروع نظرية الحضارة والتجديد الحضاري عنده، كل هذا قام على أسس فكرية ارتبطت بالفكر الإسلامي والفكر الغربي، وعلى أسس روحية دينية ارتبطت بالإسلام وبقيمه ومثله العليا في الدين والدنيا، وعلى أسس علمية ومنطقية، وعلى معايير واقعية، فردية واجتماعية، هذه الأسس تنسجم مع ما تتطلبه الطبيعة البشرية في الحياة والوجود.

الاستنتاج: التكامل بين النظرية و التطبيق.

إنّ الفكر الإصلاحي عند محمد إقبال، أو عند مالك بن نبي، أو عند غيرهما من المصلحين في الفكر الديني الإسلامي، وفي المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، هو من نوع واحد، فالنقاط والروابط التي تجمع هذه الأصناف أكثر بكثير من النقاط التي تفرق بينها. فهي أشكال من التفكير، تعددت وتنوعت حسب تعدد أصحابها، وتنوعت حسب البيئات التي ظهرت فيها، وحسب كافة الظروف المحيطة بها. إذ لا ينفصل البتة الفكر الإصلاحي عن الواقع الذي ينمو فيه، إلى أن يكبر ويتبلور، فيأخذ مكانه في الحركة الإصلاحية القائمة. هذا ما يقال عن الحركة الإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم الإسلامي، وعن فلسفة محمد إقبال ونظرية مالك بن نبي في الحضارة، باعتبار هذان النمطان من الفكر الإصلاحي جزء من الحركة الإصلاحية الإسلامية في العصر الحديث.

ارتبطت فكرة الإصلاح والتجديد عند إقبال ومالك بتاريخ المسلمين وواقعهم في العصر الحديث، حيث شهد المسلمون قديما حضارة راقية في جميع مجالات الحياة، ففي مجال الفكر سجل لها التاريخ ازدهارا كبيرا لا نظير له في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب، فهي استوعبت علوم وفلسفات القدماء وزادت عليها، كما سجل لها قوة كبيرة في التنظيم السياسي والاجتماعي والعسكري، وقوة أكبر في الحياة الاقتصادية، ناهيك عن التطور الروحي والسمو الأخلاقي، الذي يتجلى في تمسك المسلمين بتعاليم وقيم ومبادئ وأخلاق دينهم. أما واقع المسلمين في العصر الحديث فهو نموذج في الضعف والتخلف والانحطاط في جميع المجالات، ففي الحياة الثقافية والفكرية بقي المسلمون على فكر وثقافة عهدهم القديم، فلم يعرفوا الإبداع والتجديد في ذلك. أما الحياة الاجتماعية فميزاتها التشتت والتمزق في شبكة العلاقات الاجتماعية، ناهيك عن الفقر والجهل والأمراض وانحلال الأخلاق وتفسخها، فعلا إنتاج ولا وسائل إنتاج في الحياة الاقتصادية تسمح ببناء اقتصاد يفي بالحاجات الضرورية، وبيناته على معايير علمية تضمن النماء والازدهار داخل المجتمع، الأمر الذي سهل المهمة على دعاة ومنفذي الاستعمار للاستيلاء على كافة الأقطار الإسلامية، واستغلال شعوبها ونهب ثرواتها، والسعي الحثيث لطمس قيم وعناصر هويتها من لغة ودين وقيم أخرى. كل هذا كان يجري في وقت كانت فيه أوروبا الغرب تشهد نهضة حضارية، علمية وتكنولوجية، وتعرف فكرا جديدا في الأخلاق والسياسة والاجتماع، وفلسفة طبعها العصر بطابعه. وتسربت مظاهر الحضارة الغربية وانتشرت منتجاتها البرّاقة والمغرية، وتسرب الفكر الغربي ذا الطابع الوضعي التجريبي،

والمادي الإلحادي إلى حياة المسلمين من خلال الغزو والاستعمار، بوسائل الغزاة وأبناء المجتمع الإسلامي أنفسهم، فزاد ذلك في توتر الوضع العام واختلاله في حياة الإسلام والمسلمين. هذا حال الواقع في المجتمع الإسلامي، وفي العالم في العصر الحديث، هذا الواقع الذي انطلق منه المصلحون المسلمون في هذا العصر، وكانت حركة إقبال الفكرية، كما كانت محاولة مالك بن نبي الإصلاحية تستهدف بحث ودراسة هذا الواقع، وحصر مشاكله وهمومه، وتعيين سبل و وسائل إزالة محنته، وتوجيهه نحو النهضة والتقدم والحضارة.

وكانت المصادر والروافد التي نهل منها إقبال في التأسيس لفلسفته وتكوينها، ونهل منها مالك بن نبي في بناء فكره، ونظرية الحضارة والتجديد الحضاري عنده، واحدة، مع قليل من التباين بين أوضاع المسلمين في الهند وهي غير عربية بل اجتماعية وفكرية وبين أوضاعهم خارج بلاد الهند وفي شمال إفريقيا، حيث ولد وعاش مالك بن نبي. تمثلت مصادر الفكر الإصلاحي عند إقبال ومالك في البيئة الإسلامية في مصادرها الأصلية، القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والاجتهاد، وفي الفكر الإسلامي القديم والحديث، وفي الفكر الغربي والحضارة الأوربية، وما تميزت به هذه الحضارة من تطور علمي وتكنولوجي، وتطور التجربة التجريبي المادي مع ذلك. وكانت هذه المصادر مرتبطة أساسا بواقعين متباينين، واقع أوربي غربي متطور ومتحضر ومزدهر، وواقع إسلامي متخلف ومتدهور وسيئ. وجاء فكر إقبال و مالك ليقتبس من المصادر المذكور، ويبدع ويجدد، للنهوض بالعالم الإسلامي من حالة التخلف ودفعه نحو التقدم والتحضر، على الأقل للوقوع الركب الحضاري في عصره، وإلا ازداد تخلفا، وازدادت الأمم المتحضرة تحضرا وازدهارا. فكانت تلك هي أهداف فلسفة إقبال وفكر مالك وأمال كل منهما، حيث انطلقا بدراسة الواقع الإسلامي وأوضاع الحضارة الغربية والفكر الغربي وانطلقا من الإسلام وقيمه ومبادئه، وضعا منهج الإصلاح وسبل النهضة في الحياة الثقافية الفكرية والروحية، وفي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لغرض الوصول إلى نهضة حقيقية تنقذ العالم الإسلامي من الضياع، وتضعه في سكة الأمم المتقدمة، بما يتزود به من قيم وأفكار ومعارف وآليات منهجية وعملية مضبوطة ومحددة في محاولة إقبال الفكرية الفلسفية، وفي نظرية مالك في الحضارة والتجديد الحضاري، واللذين معا تنتميان إلى نفس الفضاء النظري، هو فضاء الفكر الإصلاحي في العالم الإسلامي الحديث والمعاصر.

على الرغم من التماثل الكبير بين محاولة إقبال وفكر مالك واجتماعهما في الأصول والأهداف، وانتمائهما إلى فضاء فكر واحد، هو

فضاء الفكر الإصلاحي في جانبه النظري، فهما مختلفان في أكثر من نقطة، لكن هذا الاختلاف ليس في الجوهر، ولا يصل إلى مستوى التعارض والى درجة التناقض، فهو تباين في طبيعة المنهج الذي أفرز المحاولتين، واختلاف في الرؤية إلى المشاكل والحلول، وإلى طبيعة الإصلاح والتجديد و منهجه. بالنسبة للأسلوب الذي اتبعه إقبال في دراسته وبحثه لواقع المسلم المعاصر وواقع الأوربي المعاصر ، أو للفكر الإسلامي القديم والحديث وللفكر الإنساني عامة أو للفكر الغربي الحديث والحضارة الأوربية، والذي تضمنته كتابه: " تجديد التفكير الديني في الإسلام " تميّز بعمق الفكر الفلسفي في الطرح والتناول والنقد، كما تميز بسعة ورحابه التأمل الميتافيزيقي، وبالتنسيق الكبير بين أنماط التفكير قديما وحديثا، وتميز بالاقتباس من الفكر الغربي، وجاءت فلسفته على نمط الأقدمين في موضوعاتها وعمقها وتسقيتها، وان ارتبطت بإعادة بناء فلسفة الفكر الديني الإسلامي. أما الأسلوب الذي اتبعه مالك ونجده في كتاباته ومؤلفاته، تميّز بطابعه العلمي الواقعي الاجتماعي حيث قام على تحليل القضايا الفكرية والظواهر الاجتماعية وتفعيل العقل على معايير دينيه وعلميه وتاريخيه وعملية، هذه لم تكن في مستوى فلسفة إقبال، من حيث العمق الفلسفي والتأمل الميتافيزيقي بل ارتبطت بصفة مباشرة بواقع المسلمين المتخلف وبواقع الغرب المتحضر وبسبل ووسائل وأدوات مباشرة تقضي على التخلف سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، في الجانب الروحي والفكري أو في جانب الاجتماعي والاقتصادي، والطابع الذي تميزت به دراسة مالك بن نبي التحليلية النقدية لواقع المسلمين ولحياتهم أو للفكر الإنساني القديم والحديث عامة والفكر الإسلامي بصفة خاصة، تميزت به منهج وأسلوب الإصلاح والتجديد في نظره، فكانت الواقعية، والعلمية والبراغماتية في إطار القيم الخلقية الفضلى ومبادئ الإسلام السمحى هي ما تميز به هذا المنهج وهذا الأسلوب، وهو الطابع الذي تميزت به نظرة مالك إلى مشاكل وهموم وقضايا العالم الإسلامي، وإلى طبيعة الحلول في نظرية الحضارة، وهي نظرية عامة، أو في معالجته لقضايا جزئية كقضية المفهومية أو الأفكار في الجزائر، وان كانت هذه القضايا مرتبطة بفكره الإصلاحي ونظريته في التجديد الحضاري بشكل علم.

أما طبيعة منهج الإصلاح وأسلوبه في فلسفة إقبال ارتبط بمحاولته نقد وإعادة بناء الفكر الديني في الإسلام، فالإصلاح عنده مرتبط أساسا بتغيير الذات، من خلال تغيير التصورات والمفهوم، والعواطف والوجدانات والمشاعر وغيرها. فتتحدد المبادئ والمنطلقات، وتتحدد المناهج والسبل، وتتحدد الأهداف والغايات القريبة والبعيدة كل هذا يجري ضمن دائرة

فلسفية شاملة وإستراتيجية عامة أساسها روحي ومسارها روحي وغاياتها روحية، تتمثل في بلوغ السمو الروحي المطلوب، والديمقراطية الروحية، التي هي مقصد الإسلام ومبتغاه. ونظرة إقبال إلى مشاكل الإنسان المعاصر عامة والإنسان المسلم خاصة، وطرحه لهذه المشاكل ومعالجته لها كل هذا كان بطريقة فلسفية، تقوم على النقد العميق والتحليل الواسع والتأمل الميتافيزيقي، وما زاده في عمق الأفكار وسعة التحليل وقوة النقد، هو اطلاعه الواسع على الثقافات القديمة، وعلى الإسلام وعلى الفكر الحديث والمعاصر. لذا نجده يدرس ويحلل ويناقش أفكار غيره، ثم يستنتج ويعرض مواقفه اتجاه هذه الأفكار، والحلول للمشكلات، فجاء أسلوبه فلسفيا متميزا عن أساليب ومناهج غيره، في عصر يؤمن أصحابه بفكر ذي طابع تجريبي مادي يعترض على أسلوب القدماء في التفلسف.

إذا كانت هناك جملة من النقاط تجمع فلسفة إقبال بفلسفة مالك بن نبي، وتربط بين النظرتين في الإصلاح والتجديد، توجد كذلك جملة من النقاط التي تفصل بين الفلسفتين وتميز بين النظرتين، فلا نقاط الالتقاء تجعل منهما أمرا واحدا، ولا نقاط الاختلاف تفصل بينهما تماما، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد المحاولتين من أصول واحدة، وانتماء ديني وتاريخي واحد، ومن طبيعة واحدة، ولأجل أهداف وغايات واحدة. فهما معا يمثلان فكرا فلسفيا، كانت الساحة الفكرية والثقافية والاجتماعية في أمس الحاجة إليه، وكل من الفلسفتين تمثل نظرية ذات أصول وأبعاد فلسفية، علمية، فكرية، ودينية، جاءت كمحاولة جدّية و جديدة لها أسبابها وظروفها لتغيير الفكر والواقع في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية في العالم الاجتماعي المعاصر، وهي محاولة لم يعتبرها صاحبها خاصة بالعالم الإسلامي أو بالعالم المتخلف، فهي لا تقتصر على زمن معين أو وطن بعينه أو شعب بمفرده بل هي نظرية عامة موجهة للإنسانية جمعاء، هذا بالنسبة لإستراتيجية النقد وإعادة البناء في فلسفة إقبال، أو بالنسبة لنظرية الحضارة والتجديد الحضاري عند مالك بن نبي. وذلك على الرغم من إرتباط كل منهما بالإسلام وبواقع المسلمين وبظروف الإنسان في العصر الحديث وبأوضاعه المختلفة. لكن الإسلام رسالة عالمية ذات مبادئ و تعاليم ثابتة، وذات قيم ذاتية متطورة حسب تطور أحوال وظروف الإنسان عبر الزمن، ومشاكل وهموم الإنسان واحدة، وقلقه واطمئنانه وأمله واحد، مما يجعل النظرتين ذاتا طابع عام، لا تقتصران على فرد ما أو جماعة ما أو زمن ما. وكل واحدة منهما تمثل رؤية فلسفية إلى الإنسان والحياة والتاريخ والحضارة. وهي رؤية لم يعرفها الفكر الفلسفي والإصلاحي في العالم الإسلامي المعاصر، إلا مع القليل من المفكرين أمثال إقبال و مالك.

إن الارتباط القوي والصلة المتينة بين نظرية الإصلاح عند محمد إقبال وبين نظرية الإصلاح عند مالك بن نبي على الرغم من التباين بينهما في بعض النقاط وهي قليلة، يجعل القارئ لهما والباحث فيهما يعتبر فلسفة إقبال المرجعية الفكرية، والأرضية الفلسفية الميتافيزيقية، والإطار النظري لفكرة الإصلاح والتجديد عند مالك بن نبي، التي هي بدورها تعتبر المحاولة الفكرية العملية والعلمية الواقعية لفكرة وفلسفة إقبال في الإصلاح والتجديد. ولقد ذكر فيلسوف الحضارة مالك بن نبي الفيلسوف الشاعر والمفكر المصلح محمد إقبال في كتابه " شروط النهضة "، وأشاد بمحاولته الفكرية الإصلاحية الفذة، التي خرجت عن المألوف، لما لها من دقة وعمق قي النظر وقوة في تشخيص العطب، وسلامة وصدق في التصور وذاك ما كان مالك بن نبي يسعى إليه.

قائمة المراجع

- أبو الحسن علي الحسني الندوي: روائع إقبال، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر، دون طبعة، 1986.
- أبو عبد الرحمن: مالك بن نبي و معاصروه، الإصلاحيون، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1986.
- بوروبة لمين: مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، دار أوريا للكتاب، تونس، 1984.
- محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1971.
- محمد عدي الإدلبي: الصراع على الإسلام، طبعة الرسالة والفكر الإسلامية في الجزء و بالكسان، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية 1971.
- محمد عمارة: المعركة الإسلامية في الفكر الإسلامي المعاصر، الكتاب الثاني، محمد إقبال، شركة دار الأمة للطباعة و النشر، الطبعة الأولى 1990.
- هنا فاخوري: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة كامل اليازجي، الشركة الوطنية للنشر، 1974.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1969.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، لبنان، دون طبعة، و دون سنة.
- مالك بن نبي: من الرشاد و البيد، الشرف، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية، 1988.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د. بسام بركة و أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1991.
- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، الشركة، ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية 1981.

قائمة المراجع:

- أبو الحسن علي الحسني الندوي: روائع إقبال، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر، بدون طبعة، 1986 .

- أسعد السحمراني: مالك بن نبي « مفكرا إصلاحيا» دار النفائس بيروت، لبنان،الطبعة الثانية، 1986.

- محمد عبد السلام الجفائري: مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي،الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1984.

- محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود دار التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1955 .

- محمد حسن الأعظمي، الضاوي علي شعلان: فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند و باكستان، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية 1975.

- محمد طهارى: الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، الكتاب الثاني ، محمد إقبال، شركة دار الأمة للطباعة و النشر، الطبعة الأولى،1999.

- ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة كمال اليازجي،الجامعة الأمريكية،بيروت، 1974 .

- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر،الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1969.

- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر بيروت، لبنان، بدون طبعة، و بدون سنة.

- مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الثانية، 1988.

- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة د. بسام برود.أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ،1992.

- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق- سوريا، تصويره عام 1985 عن الطبعة 1981.

-مالك بن نبي: آفاق جزائرية (للحضارة ــ للثقافة ــ للمفهومية) ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، بدون طبعة ،و بدون سنة .

- مالك بن نبي: حديث في بناء الجديد، ترجمة عمر كامل مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، بدون طبعة، و بدون سنة.

- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1974.

- مالك بن نبي: الصراع الفكري في بلاد المستعمرة، إصدار ندوة مالك نبي، دار الفكر، بدون طبعة وبدون سنة.

- مالك بن نبي:في مهب المعركة (إرهاصات الثورة)، دار الفكر المعاصر، لبنان، الطبعة الأولى، 1991.

- مالك بن نبي: دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، سوريا، تصويره 1985 عن طبعة1978.

- مالك بن نبي: دور المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثالثة، 1987

- عبد الوهاب عزّام: محمد إقبال سيرته و فلسفته و شعره مطبوعات البكستان، 1954.